http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1506) السنة السادسة - الاربعاء (13) أيار 2009

في مركز الأبحاث النفسية- جامعة بغداد

دراسات عن أمراض نفسية وصدمات سببها العنف والحروب

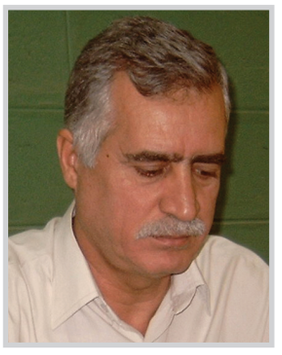

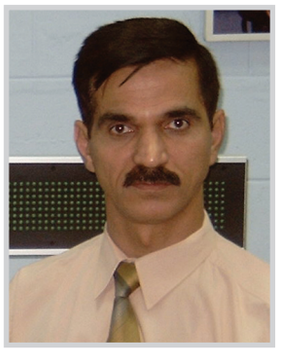

لعل الإرهاصات النفسية في حياة المرء قد تنشأ نتيجة عوامل شتى، منها اجتماعية وأخرى تربوية، وبعضها ناجم عن ظروف ذاتية وصحية قد تتسع مساحاتها لتشمل المجتمع بأسره. وهذا اخطر ما يواجهه مجتمع اذا ما تعرض لكوارث طبيعية، او كوارث من صنع البشر كالحروب والنزاعات المسلحة، والقتل والتعذيب والإرهاب، والمجتمع العراقي تعرض لعدة كوارث ونكبات، منها الحرب الطاحنة بين العراق وإيران التي استمرت لثماني سنوات

كتابة وتصوير / شاكر المياح

... والنزاعات المسلحة الداخلية التي أججت أوارها الطائفية البغيضة، واستشراء ظاهرة العنف بإشكاله المختلفة، وانتشار العصابات الإجرامية، واتساع دائرة الخوف والذعر، ومشكلات تخص أسرى الحروب وقضايا التهجير والمعتقلين، وضحايا العنف بمسمياته المختلفة، والاختطاف والاغتصاب، ومشكلات البطالة وحوادث المرور العشوائية، هذه الظواهر تهدد حياة الفرد، وهي من العوامل الضاغطة، اذ لا يستطيع المواطن السيطرة عليها، ترى كم منها أسهم في زعزعة الاستقرار النفسي للمواطن؟ ومنها ما يزال تأثيره فاعلا في صنع الأزمات الاجتماعية ؟ وما هي طرق الوقاية منها؟ وما هي الأساليب الناجعة لمعالجتها ؟ وهل يستغرق العلاج زمنا ط ويلا؟

مركز الأبحاث النفسية في جامعة بغداد المتخصصة بحثت في ظاهرة العنف وحقوق الإنسان والظروف التي استجدت بعد التغيير الشامل الذي حدث في العراق.

رئيس قسم الاختبارات والمقاييس الدكتور مظفر جواد احمد قال ان علم النفس يتمحور حول كيفية توصيف سلوك البشر وكشفه عن طريق التنبؤ، وهذه هي وظيفة علم النفس. وليس هناك مدرسة واحدة تعنى بهذا العلم، بل مدارس متعددة تبحث في هذا العلم، اذ تولي اهتماما خاصا بموضوع السلوك الإنساني، لانه، وأينما يكون هو بحاجة الى خبرة متخصصة في علم النفس. وبهذا الاتجاه يوضح الدكتور مظفر انه اذا دخلنا في خضم علم النفس السياسي مثلا، علينا ان نهيئ مجموعة من الافراد يستطيعون تبوء مناصب سياسية بمواصفات نفسية خاصة . فليس كل إنسان يصلح ان يكون مهندسا او طبيبا او عاملا، وهذا لا يعني اننا نتدخل في العمل السياسي، بل نرشد السياسي للطريقة المثلى لتوظيف طاقاته ومهاراته بالاتجاه السليم وبأسلوب علمي، بشرط ان يكون قادرا على ترتيب أفكاره لإدامة زخم عمله الديبلوماسي.

> علينا ان نهيئ مجموعة من الافراد يستطيعون تبوء مناصب سياسية بمواصفات نفسية خاصة

الآثار النفسية التي تخلفها الحروب

الآثار التي تخلفها الحروب والصراعات المسلحة على البنى والعلاقات الاجتماعية لا يمكن حصرها برقم محدد، وخاصة على العمليتين التربوية والتعليمية. وقد انشغل العديد من العلماء النفسانيين في مختلف بقاع العالم لتحديدها، وفي هذا الصدد يشير الباحث النفسي الدكتور مظفر الى ان من الثوابت العلمية ان أية هزة اجتماعية بإمكانها تغيير منظومة القيم السائدة في المجتمع، فاذا تحول المجتمع الزراعي على سبيل المثال الى مجتمع صناعي، فمن المؤكد بان مجموعة من هذه القيم ستتبدل فيه ومنها: الولاء للأرض، والتي تعد وسيلته الوحيدة للإنتاج، لان المجتمع الصناعي لا يعير اهتماما لهذا الولاء، وهذا ينطبق على المجتمعين البدوي والرعوي، لانهما متنقلان بحكم وظيفتيهما. وحينما تستعر الحروب يتعرض فيها الفرد لمواقف حرجة وصعبة ومحفوفة بالمخاطر في كل تفاصيلها، وسيعقبها حتما وطبقا لتداعياتها عليه تغيير في جملة من المفاهيم التي كان الفرد متمسكا بها قبل اندلاعها، ومنها المفاهيم التربوية، الإنسان وعندما يكون في وضع مستقر هو غيره حينما يكون في وضع قلق ومربك، ومن الخطأ إغفال المفاعيل الاقتصادية لشعوب البلدان المحترقة والتي غالبا ما تكون غير مستقرة لان الإنسان يتحرك وكأنه جزء من الحالة الاقتصادية في تلك البلدان.

ويؤكد رئيس قسم المختبرات والمقاييس قائلا: في الحروب يكون الإنسان متأهبا للدفاع عن نفسه والسلطات تزج به في الحرب ليقتل إنساناً مثله، وهو تغيير في نمطية مهنته التي كان يمارسها قبل الحرب، ولقيمه التي كان قد تمثلها، بمعنى انه سيمتهن القتل ويستسهله فيما بعد، أي ان الحرب صنعت إنساناً مستعدا للقتل ان لم يحصل على فرصة عمل مناسبة له، وخاصة بعد ان تعلم ان استخدام القوة هو السبيل الوحيد للحصول على مبتغاه، هذه الثقافة نمت في داخل المجتمع العراقي منذ اكثر من نصف قرن مضى، ولم تزل تنمو وتتمدد حتى هذه اللحظة.

الدوافع النفسية للتزوير

ما هي دوافع التزوير؟ سؤال ربما لم يجد المواطن العراقي جوابا عليه، فقد اختلطت عليه المعايير فهل عد هو الآخر، وفي الظروف الراهنة، حقا من الحقوق ؟ ام هو دافع نفسي لتعويض خسارة ما لحقت بالمزور؟ وهل هو طبع ام تطبع ؟ بتقديري الشخصي، هو لا هذا ولا ذاك، وانما هو تعبير لفشل المزور ذاته والذي وجد أقرانه سواء في المجتمع، او في بيئته الاجتماعية التي ترعرع فيها قد نالوا حظوظا اكبر مما ناله هو في الدراسة او الوظيفة او في المهارة. وفي هذا الصدد يجزم الدكتور بان عدم توفر القدرة لدى هذا المواطن على النجاح، ومن ثم دخول كلية ما، يدفعه الى اللجوء نحو سلوك الطريق غير المباشر، وهذا ما حدث وبشكل منظم مع أولئك الذين سافروا الى (ليبيا) ابان النظام السابق، اذ تم تزوير شهاداتهم في سوق (مريدي)، وفي قرية تقع بمحافظة الانبار، وفي مكتب خاص يمارس أعماله في الأردن، وآخر في (بنغازي)، وبعض من المصريين الذين عملوا في العراق ثمانينيات القرن الماضي كانوا يحملون شهادات مزورة رسمياً.

تأثير الحروب والعنف على الأطفال

الطفل تلك اللبنة الطرية في أساسات المجتمع كان هو الضحية النفسية الأولى لما تتمخض عنه الحروب، سواء في النصر او الهزيمة. يتعلم أولا من أسرته مقلدا امه وأباه، فحينما يكون الأب مصابا باضطراب نفسي فسينتقل هذا الاضطراب الى أطفاله، وبذات الطريقة ستعم المجتمع فيما بعد عبر تعاقب الأجيال، وربما تخف عند جيل معين، او قد تظل قائمة عندما يتغير النمط المجتمعي برمته، الدكتور مظفر يقول ان المخاطر تكمن في انعكاساتها على الأداء العام للمجتمع، على أداء الطالب داخل مدرسته، والمرأة في بيتها، لان الصدمة ليست لحظوية، مع قناعتنا بوجود مناعة نسبية عند بعض افراد المجتمع، التي اكتسبها عبر سلسلة من الحروب والاعمال الإرهابية والنزاعات الطائفية المسلحة، ناهيك عن سنوات الحصار التي أثرت بشكل واضح على مستويات ذكاء الأطفال، لان الطفل لا يؤمن بجدوى استخدام عقله، لانه ميال الى استعمال يديه ويعتمد على ذكائه أحياناً بطريقة منفصلة. ربما لا ينجح في الدراسة، لكنه مبدع حينما يجلس أمام (جنبره)، وهذا توظيف للذكاء في مكان آخر، واذا ما أردنا قياس تأثير الصدمة على ذكاء الأطفال فلا بد من وجود مقاييس مختبرية لتحديد ذكاء المجتمع بأسره.

> العراق ينزف دما وعلى امتداد أكثر من ربع قرن من الزمن والعالم بأسره يلتزم الصمت حيال هذا النزيف

المختبر والمقاييس النفسية

تأسست في أوروبا مؤسسات رسمية تختص بجميع اختبارات الذكاء، استطاعت وبمرور الزمن ان توجد قاعدة معلومات تتغير فيها الأسئلة المختبرية سنويا بحسب تطور مستوى ذكاء الأطفال الذي يعتمد بالدرجة الأساس على طبيعة تغذيته، لان نقص الغذاء يؤثر سلبا وكما يؤكد المختصون على القدرات الحسية للأطفال، وخاصة على السمع والبصر، وينعكس بالسلب أيضاً على الأداء العام للطفل ومنه الأداء العقلي والدماغي . هذه الاختبارات ليست حصرا على الأطفال حسب، بل هي تشمل جميع المراحل العمرية، وعن هذا الموضوع حدثنا الباحث والتدريسي في مركز الأبحاث النفسية بجامعة بغداد عادل عبد الرحمن الصالحي قائلاً: نستقبل في مختبرنا حالات كثيرة للطلبة والتدريسيين ومنتسبي الجامعة، وأخرى من خارجها الذين يرومون الفحص او المعالجة في مختلف التخصصات الطبية النفسية والعضوية من خلال مجموعة أنظمة خبيرة في مجال انتقاء وتصنيف الأفراد لوضع الشخص المناسب في المكان المناسب. ولما كان المختبر بهذا المستوى من التطور والدقة التكنولوجية، فلم لا نختار بواسطته مسؤولي مؤسسات الدولة؟

المختبر والنزاهة

حديث (الصالحي) أيقظ في ذهني سؤالاً يتعلق بالفساد الإداري والمالي وبالنزاهة، ومدى إفادة هيئتها النيابية من إمكانات هذا المختبر للكشف عن حالات الفساد، والأفراد المؤهلين قبل تعيينهم في مناصبهم الوظيفية. كمدير شعبة انتقاء وتصنيف الأفراد، قال الصالحي، فقد وضعت وبالتعاون مع زملائي الآخرين معاير لكل مهنة من المهن، غير ان الكثير من الشخصيات المعنية بهذه المعايير ترفض أن تطبق عليها، وهذا دليل على الأغلب منها غير مؤهلة لشغل وظائفها.

ففي العام المنصرم عقد مؤتمر للنزاهة، طرحنا فيه فكرة إنشاء مركز وطني لانتقاء وتصنيف الإفراد تحت شعار (الانتقاء ولا الدواء) لان معظم الوزارات والمفتشيات العامة للنزاهة وغيرها تسعى للبحث وتقصي مكامن الفساد وسبل معالجته. ولم يفكر أي مسؤول فيها بطرق الوقاية منه. لكل مرض من الأمراض وسيلة للوقاية منه، وخاصة اذا تحول الى وباء يهدد حيوات جميع افراد المجتمع، تتمثل بالتطعيم، الوظيفة شأنها شأن أي كائن حي، تصاب هي الأخرى بالعديد من الاوصاب والبارز منها، أمراض الفساد الإداري والمالي، وقطعا فان هناك وسائل للوقاية منها هي الأقرب الى التطعيم، تتمثل في عدم جواز تبوء الأشخاص لوظائفهم الا بمعايير الانتقاء. وفي اختبارات معينة نستطيع التنبؤ بقدرات الشخص العقلية ومؤهلاته النفسية والشخصية والمرشحة لان تفسد في اية لحظة، وان يمارس الفساد متى شاء، لو أنشأنا مثل هذا المركز الوطني، وثبتنا معايير خاصة بكل مهنة او وظيفة، بدءا من الوظائف الدنيا ووصولا الى أعلى المراتب الوظيفية في السلم الإداري والقيادي، حينذاك نكون قد حصلنا على التطعيم الوقائي من دون الحاجة الى البحث في كيفية اكتشاف المرض ومن ثم معالجته.

الصدمة النفسية وآثارها

ربما تعرف الصدمة النفسية عند بعض علماء النفس بانها استجابة لحادث مفاجئ وغير متوقع وخارج مديات الخبرة الإنسانية والتي قد ينجم عنها الإصابة بما اصطلح عليه (اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية)، عن هذا الموضوع حدثنا الباحث والتدريسي في قسم التطوير والتعليم المستمر الدكتور ناطق فحل الكبيسي قائلاً: العديد من افراد المجتمع يعانون في الوقت الراهن من اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية، أضف الى ذلك ردود أفعال ناجمة عن ضغوط أخرى، ومع ذلك يعدونها استجابات اعتيادية لظروف غير اعتيادية استنادا الى مناعات كانوا قد اكتسبوها من خلال وقائع الحروب التي عاشوها، هذه الأعراض تبدأ بالخوف الشديد او العجز او الرعب وتكرار الذكريات المحزنة عن الحادث التي تسبب له التوتر وتكتنفه الهموم، وتداعيات صور وأفكار ومدركات وأحلام مزعجة متوالية عن الحدث، والإحساس بان الحدث قد يقع مرة أخرى (بحسب الخداع الحسي) وهلوسات، او نوبات تفككية سواء في اليقظة او في حالات التسمم.

والعارض الثالث: انزعاج نفسي حاد عند التعرض لمثيرات داخلية او خارجية قد تتشابه مع الحدث الصادم، وتجنب مستمر للمثيرات المرتبطة بالصدمة، وتراخ في القدرة على الاستجابة، وهو ما لم يكن عند المريض قبل الصدمة.

الأطفال أكثر تأثرا بالصدمة النفسية

ان الأطفال هم الاكثر تأثرا بالصدمة النفسية، يقول الكبيسي، ومن الخطأ ان يظن البعض بأنهم لا يعون بما فيه الكفاية، لكن الحقيقة على غير ذلك تماما، فهم يدركون الحدث او الضغط بطريقتهم الخاصة، كما ان ردود أفعالهم او استجاباتهم تتم بطريقة خاصة بهم تتمظهر بنشاط مستمر، وسلوك قسري تدخلي مع قلة الاهتمام داخل قاعات الدرس، إضافة الى الشعور بالخوف أناء الليل، والخشية من انفصال الوالدين، ومحاولتهم تقليد الأطفال الأصغر، عدا التبول أثناء النوم، ومشكلات جسدية كالصداع، وألام في المعدة، وضعف في أداء الواجبات المدرسية، وعدم التركيز، وتغير في الشهية والنوم مع الشعور بالحزن والصمت، قد تختلف الأعراض في الفئات العمرية الأخرى وترتكز على القوة الجسدية والعقلية والمسؤولية الاجتماعية.

المراهقون يستجيبون لمشاعر الحزن، وربما يصبحون خارج السيطرة، وقد يفرطون في تناول المخدرات، وعلى الأغلب، فان سلوكياتهم معارضة دوما ولا يلتزمون بأية تعليمات، ويجنحون نحو العصيان مع الشعور الدائم بالسأم والملل واليأس والعجز، اما عند البالغين، فان الأعراض تبدأ بالتوتر والقلق والخوف والضجر والتهيج المصحوب بالبكاء، والإحساس بالذنب.

أزمات العراقيين لا تلقى العلاج

ما يدعو للدهشة والاستغراب، بان الشعب العراقي الذي هو جزء من مجتمع إنساني هائل تعرض ويتعرض للكوارث والنكبات منذ تأسيس الدولة العراقية المعاصرة، وربما قبل هذا وحتى اليوم، لم يلق عونا او مساعدة من المجتمع الدولي سواء في منعها او الوقوف الى جانبه حتى ولو في حدوده الدنيا المتمثلة في مد يد العون له لمعالجة أزماته النفسية والتي من شأنها ان تعيد أبناءه الى مواقعهم الإنسانية السليمة.

رئيس قسم التطوير والتعليم المستمر في مركز الأبحاث النفسية الدكتور المعاضيدي كان صريحا وموضوعيا حين، أكد ان الأزمات النفسية التي عانى ويعاني منها الشعب ولا احد يمد له يد العون، لا من الأشقاء العرب، ولا من الجيران او المجتمع الإنساني.. العراق ينزف دما وعلى امتداد أكثر من ربع قرن من الزمن والعالم بأسره يلتزم الصمت حيال هذا النزيف، واذا ما استمرت هذه الأزمات النفسية فان تأثيراتها المستقبلية ستكون وبالا على المستوى العلمي للطلبة العراقيين، وعلى المستوى المزاجي للمواطن، فضلا عن انخفاض درجات الذكاء وتدني مطامح أبناء الشعب، وعندئذ سيقوى فعل عامل الهجرة على العوامل الوطنية في أعماق المواطن.

تطالعنا وسائل الإعلام المختلفة كل يوم عن حالات من الفساد الإداري والمالي وأشكال من الرشا والاختلاسات، وما نسمعه من اتهامات لهذا الطرف او ذاك من قبل هيئة النزاهة في مجلس البنواب، لم يقتصر الفساد على المؤسسات الحكومية بل امتد الى بائع الخضار الذي راح يمارس الفساد بطريقته الخاصة، ومثله طلبة الجامعات.

أشارت رئيسة قسم البحوث والدراسات الدكتورة بشرى الطائي التي كتبت بحثا عن قياس اتجاهات طلبة جامعة بغداد نحو مفهوم النزاهة الى ان ما تنشره وسائل الإعلام المختلفة، وما يتناقله الرأي العام بشأن النزاهة والفساد الإداري والمالي له أهميته وضرورة قصوى، الظروف التي أحاطت بالمواطن كانت قاسية وضاغطة، أرغمته على انتهاج بعض السبل التي أدت به الى الانزلاق نحو الخطأ ومغريات الفساد، وبهذا الصدد تقول الدكتورة بشرى: دواعي هذا السلوك كثيرة ومختلفة منها الجشع، الجشع عند المواطن مؤلم ومريع، وليس بالضرورة ان يكون سببه هو الفقر او الحرمان، الكثير من الناس يعيشون في فاقة وعوز غير أنهم يتمتعون بعفة عالية ومحافظون على القيم الأخلاقية كالصدق والوفاء والأمانة والإخلاص.

وفي الجانب الآخر موظفون كبار فيهم جشع لا يطاق ففي الوقت الراهن أصبح الشخص النزيه غير مرغوب فيه فتغيرت المعادلة، توصلت الى ان طلبة جامعة بغداد وهم عينة البحث، ذوو اتجاهات سلبية نحو مفهوم النزاهة الذي هو من المثل والقيم الاجتماعية النبيلة. لم يأت هذا من الفراغ، بل انا على ثقة بان أسرهم تمارس وتشجع على الفساد وهذا دليل على ان هناك قصورا كبيرا في أساليب التنشئة السائدة. النظرية العلمية تؤكد على ان تعلم الأطفال يتم عن طريق (النمذجة) او (التقليد) فالطفل عندما يجد ان والده لم يصن الأمانة ولم يحترمها فانه يفعل مثل فعله.

أجريت البحث على ١٥٠ طالبا وطالبة ومن مختلف المراحل الدراسية في الجامعة، وهو عدد لا يستهان به، وعليه فانا اعتقد بان هذه الاتجاهات ستكون أوسع لو أجريناه على عموم طلبة الجامعة.

في مكتب المدير العام للمركز

محطتنا الأخيرة كانت في مكتب مدير عام المركز الدكتور غسان حسين سالم، وسألناه: هل الأبحاث مقتصرة على جامعة بغداد فقط؟

المركز مختص بالأبحاث النفسية والدراسات التربوية، ومجال عمله الأساسي هو الجامعة، ويشمل الطلبة والتدريسيين والموظفين. وهذا لا يمنعنا من الانفتاح على مؤسسات المجتمع الأخرى، وحتى الوزارات ومنظمات المجتمع المدني وبما يخدم القضية النفسية وبناء الإنسان من الناحيتين النفسية والتربوية، العملية النفسية ذات اتجاهات مختلفة، منها وقائية وأخرى تشخيصية وعلاجية، ولهذا فان اغلب أنشطة المركز هي في إطار التعاون بين المركز والمؤسسات الرسمية سواء في وزارة التربية او العمل والشؤون الاجتماعية، ومنظمات المجتمع المدني التي تعنى بشؤون المرأة والطفولة.

> الجشع عند المواطن مؤلم ومريع، وليس بالضرورة ان يكون سببه هو الفقر او الحرمان

البحوث متعددة منها ما يخدم العملية العلمية، وأخرى تخدم العملية التطبيقية، وكل البحوث تسعى للنهوض بالإنسان وبما يساعده في فهم ذاته وفهم الآخر. للشخصية الإنسانية مجموعة خصائص منها ما هو بسيط، ومنها ما هو معقد،وبالتالي فان عملية التعامل مع هذه الخصائص يسهل للفرد أولاً وللمجتمع ثانيا كيفية التعرف على نفسيهما، كما ان المجتمع يتعرض الى متغيرات كثيرة، ولذا فهو بحاجة الى عملية تكيف مع المتغيرات والى قابلية للنمو وللمواجهة وتحت ظروف طبيعية واستثنائية. وباختصار، فان مهمتنا تشمل دراسة الإنسان وهو في حالته السوية، ودراسته في الظروف غير الطبيعية التي يمكن ان تجعله يشذ عن سلوكه، او ان ينحرف، وبالنتيجة يقع فريسة للمرض والاضطراب، الأمر الذي يحتاج الى من يقدم له الخدمات.